قالَ صلى الله عليه وسَلم:

"لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبَعْثُ دَجَّالونَ كَذَّابونَ قَرِيبٌ مِنَ ثَلاثينَ ، كُلُّهمَ يَزَعْمُ أَنَّهُ رسولُ اللهِ"

متفق عليه.

من الولاية للتقديس.. بيئة التصوف وقبول دعاوى النبوة والمهدوية

أسامة الهتيمي – مصر

ربما لا يتفاجأ الكثيرون عندما يظهر بين الحين والآخر في مصر أو غيرها من البلدان العربية والإسلامية من يدّعي أنه المهدي المنتظر، أو أنه نبي، أو يزعم لقاء النبي ﷺ أو الخضر أو المسيح، بل قد يتجاوز الأمر ذلك إلى ادعاء امتلاك خصائص وقدرات روحية استثنائية تميّزه عن سائر البشر.

ورغم أن البعض يعتقد أن هذه الظاهرة لا تعدو أن تكون سلوكًا فرديًا لدى مصابين باضطرابات نفسية أو راغبين في الشهرة أو متطلعين للسيطرة على مريدين فإن ملاحظة هذه الحالات على امتداد فترات زمنية مختلفة تكشف عن جانب آخر يستحق التوقف عنده، إذ يبدو أن عددًا من هؤلاء المدّعين ظهروا في أوساط صوفية، الأمر الذي يفتح الباب أمام التساؤل عمّا إذا كانت بعض الأفكار والتصورات الصوفية تسهم في نشوء مثل هذه الدعاوى أو منحها قدرًا من القبول.

ومن ثم فإن فهم الظاهرة لا ينفصل عن البيئة الصوفية التي ظهر فيها أصحابها، والأفكار والمفاهيم التي تلقوها، والطريقة التي تعامل بها المحيطون بهم مع دعاواهم بما يستدعي النظر في بعض المفاهيم والممارسات التي قد تترك آثارًا في البنية النفسية والفكرية للمنتسبين إليها، وتدفع بعضهم إلى الانتقال من مجرد الاعتقاد أو التلقي إلى الإعلان عن دعاوى استثنائية من هذا النوع.

ظاهرة تتكرر

الحقيقة أنه ليس من الدقة التعامل مع هذه الظاهرة باعتبارها نتاجًا حديثًا أو أنها ارتبطت مؤخرًا ببعض الحالات الفردية إذ تكشف قراءة التاريخ الصوفي عن نماذج من المدعين أقدم بكثير ظهر أصحابها في بيئات صوفية وتنوعت دعاواهم بين المهدية واللقاء بالنبي ﷺ أو الخضر أو بلوغ مراتب روحية استثنائية.

ولعل ما سجله ابن خلدون في مقدمته من نماذج لظهور دعوى المهدية في بيئات صوفية يؤكد ذلك، فقد أشار إلى رجل من المتصوفة عرف بـ«**التويزري**» ادعى أنه «**الفاطمي المنتظر**» في بداية القرن الثامن الهجري، وذكر رجلًا آخر عرف بـ«**العباس**» ادّعى الدعوى نفسها قبل ذلك بسنين[1]، بل إن ابن خلدون لاحظ أن عددًا كبيرًا من مدّعي المهدية في بيئة التصوف[2]، من بينهم الحلاّج (٨٥٨–٩٢٢م) الذي ادّعى المهدوية والنبوة والألوهية والعياذ بالله[3]، ومحيي

١ - مقدمة ابن خلدون، ٢٠٢/١.
٢ - المصدر نفسه.
٣ - الحلاّج: حقيقته وما هو عليه، الحضرمي أحمد طلبة، مركز سلف.

الدين ابن عربي (١١٦٥–١٢٤٠م) الذي تحدث عن لقاءاته بالخضر والنبي ﷺ والأنبياء»[٤].

ثم تتسع الصورة في القرن الخامس عشر الميلادي مع محمد نوربخش (١٣٩٢–١٤٦٤م) الذي كان من أتباع الطريقة الكبراوية، ثم أسس الحركة النوربخشية، وهي صوفية شيعية، إذ أعلن أنه المهدي، وحظيت دعوته بأتباع من داخل الوسط الصوفي[٥].

وفي المغرب ظهر أحمد بن أبي محلي المغربي (١٥٥٩–١٦١٣م) الذي ادّعى المهدوية، وقاد ثورة في مراكش فانتصر، ولكن ما لبث أن هُزم ومات[٦]، وأيضًا عبد العزيز الدباغ المتوفى سنة ١٧٢٠م، ويعد من أبرز المتصوفة المغاربة، إذ يحكي تلميذه أحمد بن المبارك عنه أنه كان أميًا، ولما فتح الله عليه بالكمال والفيض والكشف صار من العارفين بالعلم اللدني، فصار يفتي في قضايا الناس الدينية والدنيوية، ويحل مشكلات العلم المعقدة في العقائد والأحاديث المشكلة ونحوها[٧].

وادعى البنغالي آغا محمد رضا -وهو صوفي شيعي- المهدية، وذلك لحشد الأتباع في مواجهة الاحتلال البريطاني عبر شركة الهند الشرقية، وقد هزم وسجن في نهاية عام ١٧٩٩م[٨].

وفي أواخر القرن الثامن عشر كان الصوفي أحمد التجاني (١٧٣٥–١٨١٥م) مؤسس الطريقة التجانية قد ادّعى أنه التقى بالنبي ﷺ لقاء حسيًا ماديًا، وأنه كلّمه مشافهة وتعلّم منه (صلاة الفاتح لما أغلق) [٩].

وفي القرن التاسع عشر أعلن الصوفي السوداني محمد أحمد بن عبد الله، المعروف بالمهدي (١٨٤٤–١٨٨٥م) دعوته إلى المهدية في ١٨٨١م وكان قبل ذلك متصوفًا ومنتميًا إلى الطريقة السمانية، فيما أكدت الدراسات أنه تأثر بابن عربي وأحمد بن إدريس حيث كرر ذكرهم في العديد من منشوراته[١٠].

وفي السنغال ظهر لباس تياو (١٨٤٣–١٩٠٩م) وأعلن نفسه المهدي بعد بلوغه الأربعين، ثم تجاوزت دعوته المهدية إلى القول بأنه نبي بعثه الله إلى السود، وأنه تجسيد للنبي محمد ﷺ، وقد نشأت حول دعوته الطريقة اللاهينية التي عرفت لاحقا بوصفها إحدى الطرق الصوفية[١١].

أما حديثًا فتتعدد النماذج المتعلقة بمدعي المتصوفة ومن أبرزها المصري «**عمر أمين حسانين**» الذي تذكر تقارير أنه بدأ زعيمًا للطريقة البيومية ثم ادّعى النبوة وقال: إن جبريل عليه السلام وعزرائيل يلتقيان معه ويخففان عنه آلامه، وإنه نجح في رفع الصلاة عن بعض أتباعه لبلوغهم درجة اليقين[١٢]، وقد توفي عام ١٩٩٣ في السجن.

ثم ظهرت بعد وفاة حسانين زوجته «**منال وحيد مناع**» التي نجحت في الهيمنة على أتباع زوجها بادّعاء أنه رغم وفاته يأتيها بهيئته ويبلغها برسائل لأتباعه، ثم ادّعت «أنها رأت الرسول ﷺ معه وأنه أخبرها أنه سيزورهم يوم الخميس من كل أسبوع، ليتطور الأمر معها إلى حد أنها ادّعت النبوة»[١٣] وكان عمرها آنذاك ٤٢ عامًا، بينما واصلت دعوتها لسبع سنوات اتّبعها خلالها ٢٥٠ شخصًا حتى قبض عليها عام ١٩٩٩، وحكم عليها بالسجن[١٤].

ومن الحالات التي أثارت جدلا طبيب النساء المصري «**صلاح شعيشع**» المولود عام ١٩٢٢، وكان على صلة بالتصوف لكن «بدأ يظهر عليه التحول بعد أن تعرف بزوجة صديق له وأحبها وأطلق عليها لقب (أم المؤمنين) ليعلن بعد ذلك أنه نبي ثم أطلق على دعوته (الطريقة الصلاحية الشاذلية الزينبية المحمدية)» وقد قبض عليه عام ١٩٨٥ وحكم عليه بالسجن خمس سنوات[١٥].

ومن المدّعين للنبوة أيضًا: رشاد خليفة (١٩٣٥ – ١٩٩٠م) الذي نشأ في بيئة صوفية، فهو ابن أحد مشايخ الطرق الصوفية بمحافظة الغربية، وقد هاجر للولايات المتحدة للدراسة وأصبح مواطنًا أمريكيًا[١٦].

وأيضًا: رياض أحمد جوهر شاهي (٩٤١ –٢٠٠١م) وهو زعيم روحي ومؤلف صوفي باكستاني، اشتهر في أواخر القرن العشرين بادعائه أنه «الإمام المهدي والمسيح المنتظر وتجسيد كلكي الهندوسي[١٧]!

والحقيقة أن ما سبق ليس سوى نماذج بسيطة، فقد عرفت صفحات التاريخ عددًا كبيرًا من المنتسبين إلى التصوف ممّن خرجوا على الناس بدعاوى مختلفة، وبالطبع فإن تكرار

---

٤ - الموسوعة العربية، وزارة الثقافة السورية، مادة عربي، نسخة إلكترونية.

٥ - مجلة العقيدة، وهي مجلة شيعية تصدر عن المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، https://2u.pw/GE3gFB

٦ - ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته «الإصليت الخريت"، ابن أبي مَحَلّي، تحقيق عبد المجيد القدوري، ص ٦٢.

٧ - التوحيد والوساطة في التربية الدعوية، فريد الأنصاري، سلسلة كتاب الأمة ٤٨، ٨٦/٢.

٨ - https://2u.pw/P0V4sX

٩ - جواهر المعاني للتجاني، ١٣٦/١، بوساطة التجانية، علي بن محمد الدخيل الله، ص ١١٦.

١٠ - الامام المهدي، د. محمد سعيد القدال، ص ٤٠، ٦٣.

١١- مركز الجزيرة للدراسات، الطرق الصوفية في السنغال، https://2u.pw/vytvge

١٢ - صدى البلد، ٢٠١٦/٢/١٤، https://2u.pw/3JdZmB

١٣ - الوطن، ٢٠٢١/٧/٢٦، https://2u.pw/T3HqR2

١٤ - حفريات، https://2u.pw/6FmlEf

١٥ - اليوم السابع، ٢٠٢٢/١/١٦، https://2u.pw/Cc1LlY

١٦ - السابق.

١٧ - https://2u.pw/roMHVq

ظهور هؤلاء المدعين يجعل من الصعب التعامل مع جميع هذه الحالات بوصفها حوادث فردية منفصلة ما يؤكد أن الظاهرة ليست عارضة، ومن ثم فإن تفسيرها يفرض البحث في الخلفيات الفكرية والعقدية التي دفعت بعض المنتسبين للتصوف إلى تبني مثل هذه الدعاوى.

من الولاية إلى التقديس

وبقدر ما يمكن أن تثير الدعاوى السابقة حالة من الدهشة تكشف مطالعة معتقدات التصوف والنظر في ممارسات المتصوفة عن جملة من التصورات التي قد تفسر كيف يمكن أن تتشكل لدى منتسبي التصوف مثل هذه الدعاوى، الأمر الذي يجعل من الضروري التوقف عند بعض تصوراتهم.

وتعد التصورات الصوفية حول مفهوم «الولي» نقطة مركزية، إذ لا تقف عند حدود تعريفه بأنه المؤمن المتقي أو كما يقول ابن تيمية: «الولاية ضد العداوة وأصل الولاية المحبة والقرب.. وقد قيل: إن الولي سمي وليًا من موالاته للطاعات»[١٨]، وإنما تمنحه بعض الأدبيات الصوفية مراتب وخصائص تتجاوز المألوف البشري، وهو ما تكشف عنه نصوص في مصادر التصوف، ومن ذلك ما جاء في «جواهر المعاني» للتيجاني من أن الولي «يتجرد من جميع الصفات البشرية ويتحلى بالأخلاق الإلهية»[١٩].

وقد كشفت دراسة حول تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي عن تصورات خطيرة للمتصوفة، حيث يعتقدون في الولي التطور والوجود في أماكن مختلفة في آن واحد، ومن ذلك ما ذكره «الشعراني» في ترجمة الشيخ «حسن أبي علي» حيث يقول: «كان هذا الشيخ من كُمل العارفين، وكان كثير التطورات، تدخل عليه بعض الأوقات تجده جنديا، ثم تدخل فتجده سبعا، ثم تدخل فتجده فيلا وهكذا»[٢٠].

كما يعتقد الصوفية أن الأولياء يعلمون الغيب، ومن ذلك قول الشعراني: «العارف له أن يقول أنا أعرف الآن ما تكتبه الأقلام الإلهية في شأني ويكون صادقا»[٢١].

ويرى الصوفية أن الولي يقول للشيء كن فيكون، ومن ذلك ما جاء على لسان الشيخ إدريس بن الأرباب حيث يقول: «درجات الأولياء على ثلاثة أقسام، عليا ووسطى وصغرى، فالصغرى أن يطير في الهواء ويمشي على ظهر الماء وينطق بالمغيبات، والوسطى أن يعطيه الله الدرجة الكونية إذا قال للشيء كن فيكون..»[٢٢].

ووصف الصوفية أولياءهم بما وصفوا به الله عز وجل فيقول أحدهم: «لو كشف عن حقيقة الولي لعُبد.. فعلق الشيخ التجاني على هذه الكلمة بقوله: لأن أوصافه من أوصاف إلهه ونعوته من نعوته..»[٢٣].

ويزعمون «أن أولياءهم يلتقون النبي الكريم يقظة إذ تمتلئ دواوين الفكر الصوفي بمثل هذا الحديث، ولا خلاف بينهم في إمكانها ووقعها»[٢٤].

ويتفق المتصوفة مع الرافضة في مسألة عصمة الأولياء إذ يقررون «أن الأولياء معصومون ويعتقدون بذلك اعتقادا لا يقل عن اعتقاد الشيعة بعصمة أئمتهم ولهم في ذلك طرق وأساليب ومسالك عدة»[٢٥].

وأولى المتصوفة ما يسمى بالمعرفة الباطنية اهتمامًا كبيرًا، وهي المعرفة التي يتلقاها الشخص بوسائل لا تخضع في أصلها للوسائل المعتادة لتحصيل العلم حيث تتحول التجربة الوجدانية إلى مصدر للحكم والمعرفة والدعوى وهو ما فتح الباب على مصراعيه للترويج لدعاوى غير مقبولة، ومنها مثلاً أن ابن عربي ادعى أن النبي ﷺ هو من أعطاه كتابه فصوص الحكم[٢٦].

كما يعتقدون أن أولياءهم يتلقون العلم بالإلهام والكشف مستدلين على ذلك مثلاً بقصة موسى والخضر عليهما السلام «إذ زعموا أن الخضر حي أبد الدهر وأنه يلتقي بالأولياء ويعلمهم علم الحقيقة والأوراد، وأنه صاحب شريعة وعلم باطني يختلف عن الشريعة الظاهرية»[٢٧].

والوقوف عند هذه النصوص لا يكاد ينتهي، فنحن أمام تصور متكامل ينقل الولي من دائرة الإنسان الصالح الذي يستمد منزلته من إيمانه وتقواه إلى شخصية استثنائية تحاط بخصائص وقدرات ومصادر معرفة تتجاوز المألوف، وهو ما يجعل الطريق ممهدًا أمام ظهور مثل هذه الدعاوى.

١٨- الفرقان، ص ١١.

١٩ - جواهر المعاني للتيجاني، بوساطة تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي لمحمد أحمد لوح، ص ٥٨.

٢٠ - الطبقات الكبرى، بوساطة تقديس الأشخاص، ص ٦٢.

٢١ - الجواهر والدرر، بوساطة تقديس الأشخاص، ص ٧٠.

٢٢ - طبقات ابن ضيف الله، بوساطة: تقديس الأشخاص، ص ٧١.

٢٣ - جواهر المعاني، بوساطة: تقديس الأشخاص، ص ٧٤.

٢٤ - تقديس الأشخاص، ص ٧٧ـ

٢٥- السابق، ص ٢٢٠.

٢٦ - فاتحة كتابه فصوص الحكم.

٢٧ - السابق، ص ٢٠٠.